الخاتمـة

وفي ختام هذه الدراسة المتواضعة والتي تناولت فيها تأثير أكبر الروافد المائية في المغرب الأوسط وأخص بالذكر نهر شلف على الخريطة الديموغرافية والتركيبة العمرانية والجوانب الإقتصادية للمجال الجغرافي الذي هو في خط سيره، وبالتالي أعتقد أني ملزم بإعطاء أهم النتائج التي وقفت عليها من خلال دراستي هذه وهي:

– ينسب نهر شلف لمدينة شلف وهو أكبر الروافد المائية في المغرب الأوسط في العصر الوسيط، ويظهر هذا من خلال منبعه والذي حددته المصادر من جبل عمور (بني راشد) أي من أواسط صحراء المغرب الأوسط إلى أن يصب في ساحل البحر المتوسط ليس ببعيد عن مدينة مستغانم، مع العلم أن مساره متموج ويتغذى هذا النهر من عدة أودية كوادي مينة ووادي واصل ووادي الطويل وغيرها من أودية المغرب الأوسط.

– نجح هذا الرافد المائي بفضل جريان مياهه على مدار السنة، وخصوبة الأراضي المحيطة به في إستقطاب الكثير من العناصر السكانية على إختلاف أصولها وأعراقها وعلى رأسهم القبائل البربرية التي كانت الأكثر إنتشارا في هذا المجال كقبائل زواغة وصنهاجة وأخص بالذكر قبيلة زناتة البترية وفروعها كمغراوة وبني يفرن، ليليها العنصر العربي والذي وفد للمنطقة مع جيوش الفتح، لكن أعداده عرفت تزايدا في القرن الخامس الهجري بفعل هجرة القبائل الهلالية، مع تسجيل حضور عناصر سكانية أخرى وهي مجرد أقليات كالأفارقة (أغلبهم نصارى) وهم من بقايا الأمم السابقة والتي حكمت المنطقة من قبل كالرومان والبزنطين وغيرهم، وكذلك اليهود الذين عرف عنهم إرتباطهم بكل ماله علاقة بالنشاط التجاري فجذبتهم طبيعة مجال نهر شلف التجارية، بالإضافة للأندلسين الذين إستثمروا خبراتهم في مجالات الزراعة والصناعة والتجارة وهو ما إنعكس بالإيجاب على المنطقة ككل، وكذلك تواجد بهذا المجال وفي نفس فترة الدراسة فئة العبيد خاصة من أرض السودان والذين أستعملوا في المجال الفلاحي في خدمة الأرض لقوة تحملهم، وحتى العبيد البيض من الصقالبة والذين تواجدوا على وجه الخصوص بتيهرت حاضرة الرستمين كخدم يقومون بالأعمال المنزلية في القصور والبيوت.

– نهر شلف هو العامل المباشر في قيام وإزدهار العديد من المدن والقرى على ضفافه، وأهم هذه المدن تيهرت حاضرة الرستمين والتي لعب نهر مينة دورا كبيرا في إزدهارها والتي أعتبرت من أكبر مدن بلاد المغرب الإسلامي في العصر الوسيط وكانت تضاهي حتى القيروان وفاس، بالإضافة لمدينتي مليانة وسوق ماكسن واللتان إختطهما الأمراء الصنهاجيون، ومدينة شلف والتي تنسب لبني واطيل أحد فروع قبيلة زواغة البربرية، وغيرها من المدن كمدينة الخضراء وتاجنة وجيلداسن والغزة وسوق إبراهيم وسوق كزيانة، بالإضافة إلى القرى كقريتي بني واريفين وسوق كرام (كران)، وكلها ما كانت لتعمر وتزدهر لولا مياه نهر شلف.

– التأثير الكبير لهذا الرافد المائي على الأنشطة الإقتصادية، وأكثر هذه الأخيرة تأثرا به، النشاط الفلاحي خاصة الزراعة فقد وظف ساكنة هذا المجال مياهه في سقاية محاصيلهم، وساعدتهم في ذلك طرق ووسائل السقاية التي إبتكروها، وبهذا حولوا الأراضي المحيطة به إلى مزارع وبساتين خضراء منتجة للكثير من المحاصيل الزراعية على

إختلاف أنواعها بشهادة رحالة وجغرافي تلك الفترة، كما إزدهرت تربية الحيوانات بفضل توفير هذا النهر لكميات كبيرة من المياه اللازمة لهذا النوع من النشاطات، بالإضافة إلى إنتشار المراعي الخضراء على طول المناطق المحيطة به فإستغل كل هذا في تربية العديد من أنواع الحيوانات وعلى رأسها المواشي والأحصنة، بالإضافة إلى إستغلالهم مجرى هذا النهر في صيد مختلف أنواع الأسماك التي كانت تجود بها مياهه، وقد إنعكس هذا الإنتاج الفلاحي الكمي والنوعي على الجانب الصناعي بظهور صناعة تحويلية، لكن في حدود إمكانيات تلك الفترة فنجدهم قاموا بتحويل العديد من هذه المحاصيل إلى مواد غذائية كطحنهم للحبوب وإنتاجهم للزيوت وتجفيفهم لبعض الأنواع من الفواكه وإنتاجهم للعصائر وحتى العقاقير الطبية، بالإضافة إلى ظهور صناعة نسيجية كصناعتهم للخيوط من محصول الشهدانج، والتي تدخل مع الكتان والقطن في صناعة الألبسة.

– لعبت وفرة الإنتاج بمختلف أنواعه دورا كبيرا في تنشيط الحركة التجارية بمجال نهر شلف، ويظهر هذا النشاط التجاري من خلال إزدهار وإنتشار الأسواق على طول مجرى هذا النهر، بحيث نلاحظ أنه لا توجد مدينة أو قرية من مدن وقرى هذا الأخير لم تذكر المصادر بأنها تتوفر على سوق، حتى أن بعض هذه الأسواق تحولت مع مرر الوقت إلى مدن، كمدينة سوق إبراهيم وغيرها، كما يظهر هذا النشاط من خلال مرور أهم طرق التجارة في العصر الوسيط بالمدن والقرى التي قامت على ضفاف نهر شلف كالطريق من مدينة القلعة إلى مدينة تنس.

ولقد حاولت من خلال كل هذا أن أظهر التأثير الفعلي لنهر شلف على المنطقة التي يمر فيها على مستوى التركيبة الديموغرافية والعمران والجانب الإقتصادي في حدود ماتوفر لدي من وقت ومادة علمية، ومجال البحث في هذا الموضوع لا يزال مفتوحا، وهو ما يملي عليا أن أتوجه بدعوة للباحثين والدارسين للبحث في الدور التاريخي لنهر شلف وتأثيراته على مختلف مناحي الحياة في المغرب الأوسط في العصر الوسيط.